بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

للأصول العربية في مصر تاريخ طويل، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهجرة القبائل العربية التي تدفقت على مصر مع الفتح العربي لها، إبان خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وهو الفتح الذي تحقق على يد عمرو بن العاص ﷺ، الذي ضم جيشه عدة قبائل بدوية، دفعها الحماس لدينها الجديد - الإسلام- إلى رفع رايته خارج حدود الجزيرة العربية.

وقد أصبحت مصر منذ ذلك التاريخ قطب جذب قويٌ لهذه القبائل العربية وبدأ أهل البادية يرتحلون إليها؛ إما طلباً للكلأ والمرعى، وإما فراراً من وطأة الحروب بين القبائل وبين بعضها البعض، وإما لأسباب أخرى مذهبية أو سياسية لا سيما أن مصر لم تكن مكتظةً بالسكان، ومِنْ ثَمَّ لم تقلقها هذه الهجرات، وقد توالت هذه الهجرات طوال العصور الإسلامية إلى أن وصلت إلى قمة ذِرْوتها في العصر الفاطمي؛ حيث تكاثر البدو، وانتشروا في أطرافها، وفي مناطقها الرمليَّة وفي نُتوء التلال والرَّوابي، وهي المناطق التي كانت تتلاءم مع طبيعتهم الصحراوية أكثر من ملاءمة اللَّانْدسكيب الكلاسيكي لوادي النيل، الذي يتكون من تربة سوداء تغمرها مياه الفيضان، وأنشأوا لأنفسهم تجمعات فوق الصحراء وعلى ضفتي النيل، ثم أصبح تمركزهم يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى بالجفار (منطقة العريش حالياً) وفي الصحراء الشرقية، وفي الواحات(انظر اللوحتين١، ٢).

وكان هؤلاء البدو من العرب الرُّحَّل الذين وفدوا من شبه جزيرة العرب والشام والعراق، وعاشوا بعد ذلك بين ظهرانينا، ومارسوا حياتهم على أرضنا بطريقة لا تختلف في كثيرٍ أو قليلٍ عن حياتهم الأولى في بادية العرب؛ ولكن اختلاطهم بفلاحي مصر قد أدى إلى انصهارهم في بوتَقَة مصر بعد صراع عنيف

مع ولاة الأمور الذين كانوا يخشونهم ويعتبرونهم مجرد عنصر مقلق للراحة والأمن، يستفاد منه بقدر الإمكان؛ ولكن لا يُعْطَي سلطانا!!.

ولقد عرف العرب"مصر"منذ القدم، ثم رسخت في أذهانهم منذ نزول القرآن الكريم على رسولنا النبي المصطفى ﷺ، فقد جاء في هذا الكتاب المكنون عدة آيات في أخبار مصر، أوردها المؤرخون كابن زولاق وابن إياس وغيرهما في مؤلفاتهم.

فقد قال ابن زولاق في كتاب"**فضائل مصر وأخبارها**":

"إن الله سبحانه وتعالى ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعاً. وقيل: بل أكثر من ثلاثين موضعاً، كنايةً وتصريحاً.

أما ابن عباس- رضي الله عنهما- فقد قال: سميت مصر بأرض في عشرة مواضع من القرآن العظيم.

وقيل: ذكرت في اثني عشر موضعاً من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة:٦١)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (يوسف:٢١)، وقوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، (يوسف: ٩٩)، وقال الله عز وجل حكايةً عن فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف:٥١).

وقد أكدت الأحاديث الشريفة فضائل مصر، ومنها ما أخرجه عبد الرحمن بن عبد الحكم[1] في"**فتوح مصر وأخبارها**": أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صِهْراً وذِمَّة** »، وفي رواية: « **فإن لهم نسباً وصِهْراً** »[2].

---

(1) فتوح مصر (ص٢٠)، والحديث ذكره أيضاً المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٠٢٢)، وعزاه إلى ابن عساكر.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٧٠ بزيادة على هذا.

وكان المقوقس عظيم القبط في مصر، أحد الملوك الذين بعث الرسـول ﷺ برسائله إليهم لكي يدعوهم إلى الإسلام، وما كان مـن المقـوقس إلا أن رد علـى الرسول بكتاب جاء فيه:"من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله، الـسلام، أما بعد، فإني قد قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، مما قد تدعوننا إليه من الإسلام، وقد علمت أنك نبي مرسل، وأنت خاتم الأنبياء، وقد أكرمت رسولك غايـة الإكـرام، وبعثت إليك على يده هدية".

وعندما أذن سيدنا عمر بن الخطاب- في سنة (١٨)هـ (٦٣٩م)، وفي نهاية المطاف- لعمرو بن العاص بفتح مصر، وهو الذي كان قد دخلها فـي الجاهليـة وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثرواتها وخيرها، فقد تحقق له حلمه بأن يرى مصر ولايةً عربيةً إسلاميةً.

ومن هنا بدأت موجة الهجرة العربية إلى مصر، واستحضر كل حاكم عربي معه أو استدعى إليه أهله وعشيرته، وكان سكان مصر وقت الفتح العربي - كمـا هو معروف- أخلاطاً من مختلف الأجناس من أقباط وروم وأكراد وأحباش ودَيْلَم، ورغم قلة عدد العرب الفاتحين بالنسبة لأهل البلاد، إلا أنهم قد عملوا على إقامـة مدينةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ وسط هذا المحيط المصري القـائم، وعـدلوا عـن اتخـاذ الإسكندرية -حاضرة مصر زمن الرومان- عاصمةً لهم، وأسسوا مدينة الفـسطاط التي أصبحت حاضرة لمصر العربية، واتخذت كل قبيلة من القبائل التـي دخلـت مصر خُطَّةً لنفسها، وعرفت كل خُطَّةٍ باسم القبيلة التي نزلت بها، وبطبيعة الحـال فقد سكنت مع هؤلاء العرب أقوام من أصل فارسي أو رومي أو يهـودي، ولكـن هؤلاء كانوا أقلية، أما الأكثرية التي سكنت تلك الخُطَط فكانت من العرب، وخاصةً عرب الجنوب أو اليمنية، وظل العرب يحتفظون بنسبتهم لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، ولكن خلال القرن الثالث الهجري حل اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص محل اسم القبيلة، ومنذ عهد المعتصم العباسي فقد العرب مركـزهم فـي الدولة الإسلامية على إثر ازدياد نفوذ الأتراك، وإسقاط المعتصم للجند العرب مـن

ديوان الجيش، فانتشر العرب في ريف مصر واختلطوا بالمصريين، بل واشـتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأعمال التي كانوا يترفعون عنها مـن قبل، وكان ذلك عاملاً جوهرياً في الاتجاه التدريجي نحو الاستقرار، والتحول مـن الرعي إلى الزراعة، وتـم تـشجيع القبائـل علـى هـذا الاسـتقرار بواسـطة سياسة"العطاء"، وهي المساعدات والمنح المالية المباشرة.

وفي أواخر المرحلة العربية في مصر، انزوى العنصر العربي على هـامش السلطة وضعف مد القبائل الوافدة، ولكن الدولة الفاطمية – وهي أصلاً من العرب والبدو– جاءتهم بعصر ذهبي جديد فكثرت القبائل الداخلة واتسعت أملاكها وزادت ثرواتها، ثم كانت الدولة الأيوبية بمثابة مرحلة انتقال بالنسبة لوضع القبائل العربية بمصر، حيث عامل صلاح الدين الأيوبي البدو العرب بحزم وقوة بقصد تحييـدهم في صراعه ضد الصليبيين، على أن نقطة التحول الحقيقية في وضع وحال القبائل العربية كانت بلا ريب بداية العصر المملوكي في منتصف القرن الثالـث عـشر الميلادي، فقد رفض العرب حكم المماليك باعتبارهم عبيداً لا أحراراً، واعتبـروا أنفسهم أصحاب مصر الحقيقيين، وأنهم أولى بالحكم، بينما نظر المماليك بـدورهم إلى هؤلاء العرب باعتبارهم أجانب وجسماً غريباً عن مصر مثلهم لا أكثر، كمـا يقول مؤرخنا المقريزي.

وهكذا انكسرت شوكة العرب في عصر المماليك وانحطت هيبـتهم وقلـت أعدادهم إلى أدنى حدٍّ، بل وترك بعضهم مصر نهائياً إلـى الجزيـرة العربيـة أو السودان أو المغرب، وانسحب البعض الآخر من وادي النيل إلى أعماق الصحراء، والبعض الآخر تحول إلى الزراعة واستقر نهائياً، فقد كان الخيار في النهاية هـو إما أن يظلوا بدواً فيرحلوا، وإما أن يصبحوا مستقرين فيبقوا، أي إما بـين بـداوة مضطهدة أو استقرار مقبول.

وهذه – بإيجاز شديد– هي المراحل التي مرت بها هذه الموجة العربية فـي مصر، ويمكن القول، إذا ما أردنا تقييماً شاملاً لدور هذه الموجة ووزنها في تكوين

مصر البشري: إنه إذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافياً، وأسلموها دينياً، فإن مصر قد مصرتهم جنسياً، وتحول التعريب إلى تمصير، أي تمصير العرب، غير أننا ينبغي لنا أن ننظر إلى الفتح العربي والهجرة العربية إلى مصر كعملٍ نادرٍ خارقٍ؛ لأن العرب إذا كانوا قد عرَّبوا مصر لغوياً ودينياً، فقد مصرتهم مصر حضارياً ومادياً مع استمرار الإسلام واللغة العربية – لغة القرآن الكريم– يشكلان القوة الجاذبة المركزية لأهل مصر بعامة.

ومن الصعب جداً بل ومن المستحيل أن نقدر أعداد هؤلاء البدو الذين حضروا إلى مصر على مدى القرون العشرة، والتي امتدت من الفتح العربي وحتى الفتح العثماني لمصر عام (١٥١٧)م، وبفضل ما خلَّفه لنا القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ) نستطيع القول بأن عدد القبائل البدوية التي جاءت إلى مصر منذ الفتح العربي وحتى العصر الملوكي، كان على النحو التالي:

١- تسع قبائل قحطانية كبرى، وما يقرب من (٢٩٠) بطناً من بطونها.

٢- خمس قبائل عدنانية كبرى، وما يقرب من (١٥٠) بطناً من بطونها.

٣- ثلاث قبائل بربرية كبرى، وما يقرب من (١٠٠) بطن من بطونها.

ولقد قامت هذه المجموعات بدور لا يستهان به في أسلمة مصر وتعريبها كما أن هؤلاء البدو قد تركوا آثارهم في كل مكان ذهبوا إليه في مصر، وما زالت عدة قرى ومدن في الوجه البحري والوجه القبلي تحمل أسماء القبائل التي نزلت هناك، مثل: بني حسن، ودار جهينة، والجعافرة، والأَخْنُوة، وسلاطنة، وبني قريش، وبني هلال، ومغاغة، وبني عدي، وبني قرة، وكفر فزارة... إلخ.

وقد تغلغل هؤلاء البدو في الحياة المصرية، ولم يقتصر نشاطهم على الرعي وتربية الخيول أو الزراعة، بل استخدمهم الولاة كفرق مساعدة في الحملات الحربية، كما كانوا يكلفون بأعمال الدرك، وهي الحراسة وحفظ الأمن في أطراف الدولة، بل أقاموا دواليب السكر في الصعيد، وعمل بعض أفرادهم في مناجم الذهب في وادي العلاقي.

لقد قدَّم البدو لمصر خدمات جليلة وكان عطاؤهم كبيراً، سواء على المستوى البشري أو المادي أو المعنوي، وقد خضعوا بطريقةٍ لا شعورية لسحر أرض مصر إلى درجة أنهم أصبحوا لا يرون في أنفسهم سوى أنهم قد صـــاروا مـــصريين، أو قل: صاروا مصريين منحدرين من أصول عربية!.

وقد جاء هذا الكتاب ليحاول إلقاء الضوء على هذه الحقبة الهامة، والبحـــث عن هذه الأصول العربية واستكشافها، والوقوف على حقائقها وتفاصيلها، والقيـــام بتأصيلها علمياً وتاريخياً.

والله ولي التوفيق،،

د. عبد الحميد صالح حمدان

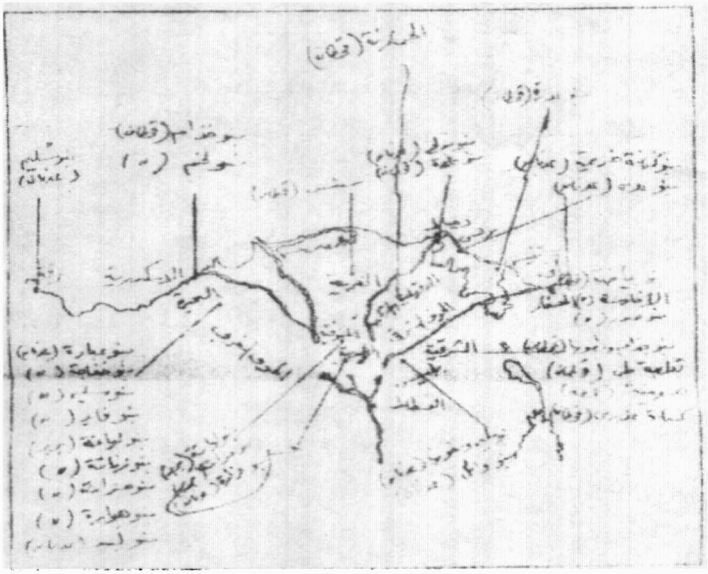

اللوحة رقم (١): توزيع القبائل العربية في مصر السفلى

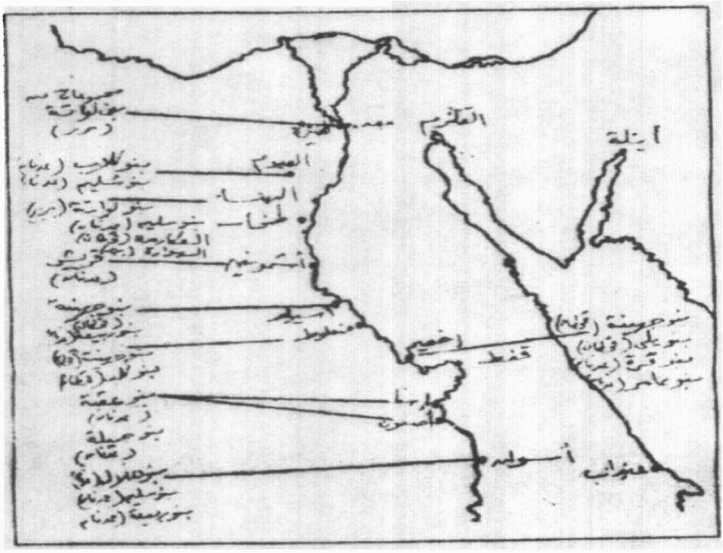

اللوحة رقم (٢): توزيع القبائل العربية في مصر العليا